الشيخ سيد الصفتي

لفظ أنفاسه الأخيرة صبيحة الأحد الماضي
وترك فنه وديعة غالية بين يدي التاريخ

للأستاذ محمد السيد المويلحي

لعل الفنان الحق هو أقرب الناس إلى قلب الطبيعة وروحها، ولعله أقدرهم على معرفة أسرارها وأخبارها فهو وحده الذي يترجم لها أسرارها وكلامها، وهو وحده الذي يصور حسنها وجمالها التصوير الرائع الصادق الذي يحملنا على العجب والإعجاب

ولعل هذا الفنان هو أقرب الناس إلى الشذوذ والخروج على تلك الأوضاع البشرية التي وضعت للحد من الطباع والغرائز والرغبات. فله دستوره وحده... وله طباعه وتصرفاته التي يفرضها على الناس فرضاً. ثم هو بعد هذا أو قبله... الإنسان المرهف الحس، العظيم النفس، الممتلئ نبلاً ورجولة وكرماً

وسيد الصفتي من هؤلاء الذين أضفت عليهم الطبيعة كل ما فيها من فن وجمال وإقبال وشذوذ حتى خط لنفسه في كتاب الحياة وسجل الخلود صفحة نيرة مشرقة سوف يتلوها الزمن على سمع الأجيال المقبلة

كان قصير القامة يلتهب نشاطاً وتتلظى قوة، وجبروتاً... يزين رأسه (عمامة) صغيرة تمتاز برشاقتها وأناقتها، (وشالها) الحريري المفتول الذي يعطيك صورة واضحة لأناقة صاحبه وحرصه الدائم على أن يظهر في أجمل المناظر

ابتدأ حياته قارئاً يجيد تلاوة القرآن فعُرف وسمى الناس إليه، ولكنه رأى أن يكون كالشيخ اسماعيل سكر قارئ مولد ومادحاً للبيت الشريف وصاحبه (ص)؛ فخرج على الناس سنة ١٩٠٢ بهذا اللون الجديد الذي قربه أكثر من ذي قبل إلى نفوس المصريين، وما مضت سنة حتى زاحم الشيخ إسماعيل نفسه... وتفوق عليه تفوقاً محسوساً. وفي سنة ١٩٠٤ انضم إلى بطانته الشيخ ابراهيم الغربي الموسيقي المعروف الذي لحن له كثيراً من الموشحات الجديدة التي كانت السبب فيما ناله الشيخ سيد من شهرة طائرة، ومن ارتفاع سريع لم يكتف به وقد ذاق حلاوة الشهرة والإقبال، فكان يقرأ أول الليل قرآناً ثم يثني بالقصائد النبوية، حتى إذا كان الهزيع الأخير من الليل غنى أدوار الحولي ومحمد عثمان وغيرهما بمصاحبة العود...

أتراه قد اكتفى بهذا التجديد الغريب... لا... ولعله رأى أن هذا الخلط ينفر الناس فترك القرآن والقصائد

وتيهاً ترامت مغازاته ... وموجاً توالت هداراته
فجئت عليك شحوب الطريق ... وفيك من الجهد آثاره
فجبت فيك الرسول الأمين ... تشق على الصبر أسفاره
وقبلت فيك الوفاء الجميل ... إذا نسي العهد غداره

* * *

أبا زهرتي جاد زهر الحمى ... كريم السحاب وزاره
بلغت قمن مبلغ جيرتي ... سلاماً تضوع عطاره
نأيت عن الدار لا عن قلى ... فأحلى مغاني الغنى داره
ولكنني سرت يحثني ... طموح الشباب وأوطاره
تحيرت بعدي ولو أنني ... هديت لما كنت أختاره!

«باريس» أمجد الطرابلسي

تصويب: في المقطع الأول من قصيدة «مصرع الصقر» المنشورة في العدد ٣٠٨ بيت جاء كما يلي:

أسلموا الأمين القريرة للحتـ ... ـتم وناموا من كامن المقدور

وصوابه:

أسلموا الأمين القريرة للحتـ ... ـتم وهاموا في قصره المسحور

النبوية وظهر عام ١٩٠٥ على محنه الموسيقى القوي يرسل على الناس سحر صوته وقوة فنه حتى تحكم في سوق الغناء وفي مسامع الشعب ، فكان يشتغل تباعاً طول أيام السنة . ولكي نعطي القارئ صورة قريبة عن شهرة هذا الرجل العجيب في صدر شبابه نقول إنه استمر خمس سنوات كوامل يغني دون أن ينقطع ليلة واحدة ... ومثل هذا في الشام !

كان صوته مركباً من خمسة عشر مقاما تقريباً (١٢) بريتون (٣) باص ، وكان يمتاز بسلامة تامة وبأداء بارع لم يعرف (النشوز) طول حياته . ولعله من الأصوات النادرة التي كانت (تفرش) في غنائها حتى لتسمعها الآلاف بوضوح وجلاء .

كان أول موسيقي شرق اعتنى (بالبروفات) اعتناء عظيماً ، فكان يشتغل طول نهاره فيها دون أن يتعب أو يمل أو يشكو ألماً وتوعكاً ، ولعل سحر الذهب والإقبال والمجد هو الذي كان يمد هذا الرجل بالقوة الخارقة التي لا يكاد العقل يصدقها . وإلا فهل يصدق العقل أن بشراً يشتغل أغلب يومه وأكثر ليله دون أن يستريح إلا ساعة أو ساعتين ... ؟!

عنّا في حياته أكثر من أربعة آلاف (اسطوانة) وهو رقم تاريخي لم يصل إليه مطرب ولا مطربة في الشرق والغرب . وقد اكتسب منها الآلاف ، ولكن إسرافه أضاع كل شيء إلا ذكره ومروءته وكرمه . . .

ثم باع ماله وأضاع آلافه ليشتري بها مجده وخلوده . وما بالك برجل كانت اسطواناته توزع في الشرق والغرب كأنها الغذاء الذي لا يُستغنى عنه حتى ظن (التآم) أن الصفتي هذا لا بد أن يكون ماردا لا تقع العين على نهايته . فلما سافر هناك ورأوه بحجمه الضئيل النحيل خابت ظنونهم واعتزموا ألا يسمعوه إلا في حفلة أو حفلتين من قبيل (الفرجة والاستطلاع) . وكان الشيخ رحمه الله قد علم بهذا ، فأعد العدة لحفلة الافتتاح ، ثم راح يشدو ويرسل سحره وقوة فنه في عُقَد سحرية على هؤلاء الذين يظنون أن القوة في (العرض والطول) فماجوا وهاجوا وتقلبوا وصرخوا والشيخ يضحك ، حتى إذا تأكد من النصر أراد أن ينتقم فأمسك التخت وسكت ، ثم نزل وصرح للمتعهد بأنه يرغب في السفر والعودة إلى مصر بعد (يومين) لأنه قصير لا يحسن الغناء . ولا تسل عما حصل من الشفاعات والتوسلات

ولكن الشيخ رحمه الله كان ظريفاً خفيف الظل وقد أراد أن يلهو ويضحك فكلف المتعهد أن يأمر السامعين بكتابة (يفط) بهذا الشكل حرفياً (الشيخ سيد الصفتي طويل -- الإمضاء) فنفذ الأمر في الصباح واجتمعت لدى الصفتي كل وسائل البهجة والسرور ، فاستمر خمس سنوات لا يستريح فيها ليلة واحدة اكتسب فيها الآلاف . فلما رجع إلى مصر لم يرجع (بعليم واحد منها) . كان في أخريات أيامه يعيش عيشة فلسفية زاهدة في كل شيء فلم يكترث « كغيره » لأن محطة الإذاعة تناسته وأهملته، بل كان يحيا حياة الأسرة الهادئة : حياة الرجل الذي شبع وشبع حتى مل كل ما يتهافت الناس عليه

لقد فني سيد كما فنى غيره، ولكن فنه سيبقى لأنه من الخلود نشأ، وإلى الخلود انتمى ...

محمد السيد الريدي

حاشية : فكرت وبعض إخواني الموسيقيين في إقامة حفلة تأبين له لا مساعدة لأهله فهم بحمد الله في بحبوحة من العيش، ولكن لنرد لهذا الوسيقار الخالد بعض منته على هذا الفن الجميل. فكل من يود الاشتراك معنا في هذا السبيل الجميل من الموسيقيين والأدباء والقراء أرجو أن يتفضل بالكتابة إلي على عنوان الرسالة .

مؤلفات الأستاذ عبد المتعال الصعيدي

١ البلاغة العالية في علم المعاني
اسلوب جديد في تدريسه لهذا العلم

٢ زعامة الشعر الجاهلي بين امرئ القيس وعدي بن زيد
موازنة جديدة بينهما

٣ الميراث في الشريعة الاسلامية والشرائع السماوية والوضعية
يضم بين دفتيه فصلا لهذه المواريث وموازنات دقيقة بينها

تطلب هذه الكتب من ادارة مجلة الرسالة بأثمانها مع اضافة أجرة البريد لها وسيصدر الكتاب

كامل الخلعي

وناحية الشذوذ في حياته

بمناسبة ذكراه الأولى

للأستاذ محمد يوسف دخيل

ينقضي العام الأول على مغادرته الدنيا، ومع ذلك فهو لا يزال مجهولاً ، وسيبقى مجهولاً إلى الأمد البعيد ؛ لا لأنه كان شخصية تافهة ضئيلة الأثر في نفوس الجماهير ؛ ولا لأنه كان غامضاً يعز على أفهام الناس كشف حقيقته ، بل لأنه ظهر في عصر من الغموض والركود ، بحيث لا يعنى الجماهير بغير مظاهر الحياة وأشباحها البارزة للأبصار المجردة . ولو كانت الحياة الفكرية ذات وضع يمكن أن يحسه الناس في مصر لما مرت عليهم صورة من صور الأحداث الشاذة دون أن يتفهموها ويستكشفوا غامض الشذوذ فيها . وإذن لحفلوا بحياة « كامل الخلعي » لا من الجانب الموسيقي ، فحسب ، بل من جانب لم يعن به القوم في حياة هذا الفنان : وهو الجانب الفلسفي .

لقد كان « كامل الخلعي » صاحب رسالة خاصة في الفلسفة ، لا أدري أكانت في كنهها فوق متناول العقلية المعاصرة ، أم أن الناس لم يحفلوا بها عامدين لانصرافهم إلى حياة المادة الهينة بعيدة عن الفكر ، وما يحيط الفلسفة من غموض ، وما يستلزمه بحثها من تكاليف .

وسواء جهلت الجماهير شخصية « كامل الخلعي » عن عمد أو امتنع عليهم فهم رسالته في الفلسفة ، فهو قد غادر الدنيا تشيعه أسراب من سحائب الغموض وثوى في مرقده بين سبابات من محاملات الأقلام جافة الدموع

كان « الغموض » هو شعار الفلسفة التي انطبعت بها حياة « كامل الخلعي » ولذلك ظل الناس يجهلون حقيقته حتى أقرب الناس إلى نفسه . وقد كان مسرفاً في الحرص على أن تفيض روحه الفلسفية على كل مجهول . وفي هذا المنحى الدقيق تلمس الإيمان الصحيح في عقيدة (كامل) وتحس تمكن الدين من نفسه لأنه زهد من متاع الدنيا واستطاب أن يجوع ليختفي عن سمعه صوت الجياع حتى لا يثير عواطفه توجع الغير وآلامه . فيكون من الأمور الطبيعية عنده أن يدفع بكل ما في جيبه لمستجد شعر هو بمرارة حاجته . ثم يعود إلى بيته ماشياً على قدميه ، وليس عند أولاده طعام اليوم ، وكلما نازعه الإحساس بالندم أمام مسرته لتفريطه في قوت أولاده تدرع بقوله تعالى : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة »

استطاع « كامل الخلعي » أن يفهم الدنيا فهماً صحيحاً في دقة وإمعان ، واستطاع أن يستوعب المجتمع ويتفهم نواحي التقارب والتباعد من حياة الأفراد في بيئاتهم المختلفة ، وأن يندمج في الجماعات اندماجاً كاملاً . ومع ذلك لم تستأثر به بيئة دون أخرى ، لأن العقلية الشاذة التي تهيأت لهذا الفنان العبقري كفلت له أن يهتضم البيئات دون أن تجتذبه إلى صميمها واحدة منها ، ولهذا كان له عديد من الشخصيات التي لو وجد صاحبها في غير مصر لانصرف لدراستها علماء النفس والفلاسفة

إذا أثيرت في مجلس ذكرى « كامل الخلعي » انطلق المتحدثون في تناول ذكراه بشتى أنواع الحديث وليس فيهم من يضع أصبعه على نقطة الصواب من أحاديث المجلس . . . وأغلب

ما يجتمع عنده حديثهم أن الرجل كان مخبول العقل ! وهى كلمة طالما ترامت إلى سمع « كامل » وهو حى يرزق ، فكان يبتسم لها فى اطمئنان غير مبال بما يذهب إليه الناس فى شأنه من مذاهب . ذلك لأنهم ما كانوا يجدون لأنفسهم مخرجاً من التفكير فى عقلية « كامل الخلى » إلا أنه مخبول ذلك الذى يطوف الحارات والأزقة باحثاً عن الكلاب الضالة والقطط المشردة ليدفع إليها من الطعام ما يباعد بينها وبين الجوع

استقبل كامل الدنيا طفلاً لموباً كما يستقبلها أترابه من أبناء الذوات والمترفين. ولكنه لم يلبث أن اصطدم بأول حادث هز عواطفه البكر فى مستهل حياته . لم يكن قد تجاوز الخامسة حين بدت نذر الثورة العرابية ، وكان والده يومئذ من ضباط الجيش المقيمين بالإسكندرية . ففى ساعة واحدة صدرت الأوامر بتأهب الجيش ، ولم يجد الضابط الباسل فرصة لتوديع ولده الطفل واكتفى بأن بعث إلى منزله « بكوم الشقافة » من نقل زوجه وطفلها الصبى سريعاً إلى دمنهور مستقر العائلة . والطفل البكر فى نمو العقل يستطيع أن يحس هذا الموقف كما أحسه « كامل » إذ أدرك أن والده الضابط قد لا يعود إليه لأن القتال قد بلغ حماسته بين المصريين والإنجليز . ولم يشك كامل فى أن والده قد لقى مصرعه فى خط النار عند كفر الدوار ، ولكن مفاجأة أخرى اصطدمت بها أعصابه الغضة بعد انتقال ميدان القتال إلى التل الكبير وبعد عام كامل فإذا بالضابط يعود إلى أسرته حياً بعد أن أدى فى سبيل الوطن واجبه ، وإن انتهت الحرب على غير ما يبغى الأحرار

وبالرغم من أن « كاملاً » قد استعاد الحياة فى كنف والده بعد يأس من لقائه ، إلا أن هذا الحادث لم يغادر ذاكرته ولم يزايل الأثر أعصابه ، بل بقيت ذكرى هذا الألم متغلغلة فى نفسه وصدره تحوله إلى مخلوق كثير الدموع دقيق الإحساس رقيق الشعور بكل ما يحيط به من ألم أو سرور ، يبكى لبكاء الباكين ويفرح لسرور الفرحين

وفى القاهرة بدأت الرحلة الأولى لشخصية « كامل » إذ كانت المدرسة أول تجربة أظهرت النزوع المتركز فى عقليته ، وهو عصيانه لكل نظام يحد من الحرية وإن أوجبت هذا النظام طبيعة الوجود . وقد جنت هذه النزعة على « كامل » فى حياته ومستقبله إذ قطعت عليه طريق الدراسة التى يلتمس من ورائها المستقبل المادى فى الحياة ، فما انتهى من دراسته الابتدائية حتى تمرد على هذا النوع من التعليم المحدود فى نطاق البرامج

وصادفته صدمة أخرى أكرهته على التشرد بعيداً عن حضانة الوالدين ، إذ تفرق ما بين هذين الوالدين من رباط . فانطلق كامل يضرب فى الأرض أفاقاً يلتمس الحرية والتعزى عن فجيعته فى حضانة والديه . وعبثا حاول والده أن يخضعه لطاعته التماساً لدفعه إلى المدرسة يستكمل دراسته . واستقر الفتى بعد ذلك على اختلاس التردد على مكتبة والده فى ساعات متقطعة استطاع من ثناياها فى مدى عامين أن يقرأ كتاب « العقد الفريد و الأغانى » وتاريخ ابن الأثير والجبرتى وطائفة من دواوين شعراء العرب ؛ وهو لما يجاوز الخامسة عشرة .

فى هذه الفترة كان « كامل الخلى » يتهيأ لأن يستمع إليه الخاصة مطرباً يحيى موات النفوس ويراه الناس خطاطاً ورساماً قد دق إحساسه بروح الفن . وهو فى هذا المجال من الصبا ينطلق بين الجماعات المختلفة : فتارة تراه فى مجلس العلماء وأعلام الأدب من طراز « السيد توفيق البكرى » نقيب الأشراف يومئذ وقد اصطنع « كاملاً » لنفسه ، أميناً لمكتبته ؛ وتارة تراه يدارس أساتذة الموسيقى فى عصره ويستلهمهم أسرار الفن وأصوله وقواعده

وفى هذا السياق من التخبط فى الحياة ، انتقل والده إلى ربه بعد أن ضعف بصره ووهنت قواه . فلم يتريث « كامل » فى طريقه بل واصل حياته جاداً مستهيناً بكل ما اعترضه فى جهاده ؛ واستطاع بعقله الخصب أن يصل إلى قمة الشهرة عن جدارة ، فكان الأديب واللغوى والفقيه والشاعر والخطاط والرسام بل الموسيقى الذى استهوى القلوب ، وتزاحم الأعيان وخاصة العلماء والأدباء على التماس الاستئثار به فى مجالسهم بحادثهم فى الأدب ويطربهم بسحر أغانيه العذاب

لقد نضج « كامل الخلى » قبل الأوان ، وشارك أساتذته فى ثروتهم من الأدب وعلم الموسيقى ، فلم يكن كثيراً على نبوغه المبكر أن يفاجئ الناس وهو فى سن السادسة والعشرين بكتابه « الموسيقى الشرقية » فيأخذ به بين علماء الموسيقى فى مصر والشرق مكانة (العالم المتمكن) ولكنه ابن السادسة والعشرين

واستطاع « كامل » أن يتعلم من اللغات التركية والفارسية والإيطالية وأن يجيد الفرنسية إجادة الرسوخ . وهو بعد أن تطاول كتابه « الموسيقى الشرقية » إلى أقطار العالم تتراءى إليه

رسائل المعجبين من كل صوب : مما أوجد فى نفسه الرغبة إلى اقتحام مخاطر الرحلات ، فزار الشام وتركيا وإيطاليا وفرنسا وتونس ، وقضى فى كل منها عدة من السنين اتصل فيها بعلماء الموسيقى وأعلام الأدب حتى اندمجت شهرته بشهرتهم وتبادل معهم كل جديد من الرأى فى الموسيقى العربية والإفرنجية

ثم هو يستقر بعد ذلك فى مصر أستاذاً كاملاً فى علم الموسيقى يرجع إليه المشتغلون بها فى كل ما استشكل عليهم من غامض الفن . وهو فى نفس الوقت يتهيأ لأن يفاجئ المصريين بنوع لم يتعرفوا إليه فى الموسيقى من قبل هو نوع الأوبرا والأوبريت التى أبرز فيها شخصية السيدة منيرة المهدية على المسرح الغنائى لأول مرة فى التاريخ سنة ١٩١٦ تركز بعدها كيان الأوبرا الغنائية فى فن التمثيل

ويواصل « كامل » بعد ذلك جهاده الفنى بين المسرح و (جوقات الطرب) بما قدم لفن الغناء من تلاميذه النوابغ الذين علا نجمهم وإن تنكروا له بعد ذلك فى عنته . ولكنهم اليوم أصحاب السمعة والصيت دون أستاذهم المجهول الذى ساهم فى وضع أساس الفن ومهد له سبيل الحياة . ثم مات عن خصاصة وعاش تلاميذه فى رخاء من تركة أستاذهم الفنية ، وهى ليست من القلة بحيث تفقد وجودها وسط هذه الفوضى العابثة من الألحان والأغانى التى يخرج علينا بها مطربو هذه الأيام . فقد تجاوزت تركة « كامل الخلعى » من الألحان الأربعين رواية بين الأوبرا والأوبريت موزعة بين فرقة السيدة منيرة المهدية وشركة ترقية التمثيل العربى (شركة مصر للتمثيل والسينما اليوم) وفرقة الكسار . بل من إنتاج « كامل الخلعى » تزودت أشهر المطربات فى مصر فسمون بأغانيه إلى مرتقى مجدهن الذى من عليائه تكونت لبعضهن ثروة تغنى مئات من طراز الخلعى الذى مات فقيراً معدماً ، بعد أن مهد لتلاميذه الطريق إلى الشهرة والثراء . وكان من أشد ما لاقاه « كامل » فى أخريات أيامه من مرارة وألم أن مغنية كبيرة تمن لحن لحن « كامل » بلغ بها الشح إلى اغتياله فى حق له عندها من ثمن قطعة لحنها لها ربحت منها مئات الجنيهات ضنت عليه بعدها بأجره ، وكان من حقه عليها أن تكفيه شر ما لاقى من فقر ومسغبة .

فيقدر ما أسرف « كامل » فى العطف على الفقراء والمكدودين ويسط لذى الحاجات كفيه ، جحد الناس فضله ونسوا أياديه على الفن وتنكروا لأولاده من بعده . وهو لم يكن يجهل هذا المصير الذى آذنه عند تدهور قواه وسقوطه على فراش الموت ، لأنه خبر المجتمع ودرس حياة الجماعات وأمعن فى فهم الأخلاق التى تسود القوم من تنكر وجمود وأثرة

كان « كامل الخلعى » مخلوقاً غريب الأطوار فى حياته وعقليته . لم يضع كيانه فى بيئة خاصة ولم يلتزم جماعة معينة فى المجتمع . فبينما تراه نديم العظماء فى سهراتهم الخاصة وسمرهم الطروب ، إذا بك تشهد له فى نفس اليوم مجلساً متواضعاً بين جوقة من (أولاد البلد) فى حى (المشاوى) أو غيره من الأحياء الوطنية فى القاهرة ، يلقنهم أغانيه الشعبية المرحة التى احتكرها جماعة (الصهبجية) وجوقات الطرب فى الأفراح الشعبية . وفى نفس الوقت تكون إحدى دوره الفنية ساطعة الضوء على مسرح من مسارح التمثيل الغنائى تجتذب بروعتها لب الجماهير . وقد يلزمه فنه الوحى من روح الطبيعة مجالسة إحدى الطبقات من الشعب لتطبيق أغانيهم على لحن سادفه فى رواية مسرحية جديدة ، فقد عهدت إليه (شركة ترقية التمثيل العربى) يوماً بتلحين رواية « طيف الخيال » وفى الرواية مشهد من مشاهد (الحواة) فدفعه إخلاصه لفنه إلى أن يجوب أحياء القاهرة باحثاً عن أحد الحواة ليشركه معه فى وضع اللحن الملائم لهذا المشهد . فكان حظه من التوفيق مطابقاً لما سبق له من نجاح دائم فى ألحانه المسرحية

وإذا كانت حياة « كامل الخلعى » الموسيقية قد طغت على قيمته العلمية فحجبت عن الجماهير شخصيته كأديب وعالم خصب ، فإنه من غير شك كان ينحو فى الحياة منحى فلسفياً أفرد له شخصية شاذة ذهب الناس فى تكييفها مذاهب شتى . فلم يوفق باحث من كتاب الاجتماع إلى إبراز شخصية من حيز الغموض والمجهول .

ولقد تناول حديثى عن « كامل الخلعى » مرة مع صديقى الأستاذ أحمد خيرى سعيد ناحية شاذة فى ميول الرجل ونزعاته الإنسانية ، فذكرت لصديقى أننى مرة كنت أرافق « كاملاً » فى حى (باب الخلق) وصادفنا صاحب عربة (من عربات النقل) أثقل على حصانه العبء فما كان من « كامل » إلا أن اندفع على الرجل فى حالة عصبية ثائرة وأبى إلا اقتياده إلى قسم البوليس ! أى جريرة ارتكبها الرجل؟ لقد استعمل القسوة مع الحيوان المسكين